صديقي

صرتَ صديقي منذ سؤالكَ لي: من أين تأتي الريح؟
الشاعرُ يعرفُ الريحَ والجيولوجي يكسرُ فكرتها.
وأنا منذ ستين عاماً بدأت بسؤالٍ مشابهٍ: إلى أين تمضي الريحُ؟
كُنتَ ممثلاً أتقنَ دورَ العندليبِ حتّى تقمّصهُ إلى ما بعد نهاية المسرحيّةِ ليطلقَ أغنيته في الشوارعِ الخاليةِ.. النظّارةُ عادوا إلى بيوتِهم وذهب الممثلونَ إلى أقربِ حانةٍ، والمهرّجُ الذي أضحكنا كثيراً في مسرحيةِ النخلةِ اللاجئةِ بقي، وحده، خلف الكواليس يقشّرُ كآبتَهُ.
أنتَ حيرةُ الآسيويّ بالعولمةِ وأنا أحاولُ تبريرَ القصيدة وهي في أوّجِ عزلتِها.
كلانا ينتميانِ للضحيّةِ ويختلفانِ على الجلّادِ. أبناءُ المكان نفسه وإخوةُ يوسفَ أنفسُهم. لستُ الواحدَ أنا ولست المتعددَ أنتَ.
رسمنا دائرةً على الورقة واقتسمناها: لك نصفها ولي نصفها مثل جنديينِ عدوّينِ ولم نُدركْ وحدةَ الدائرةِ.
تبادلنا المواقعَ بين الصوتِ والإشارةِ. تبادلنا الأكاذيبَ جداً وكلٌّ منا يحتضنُ الآخرَ عند اللقاء وعند الوداع.

وصلنا إلى اللامكانِ في نهايةِ المطافِ لنكتشفَ أنّ هذا القمرَ لا يُشبهُ ذاك الرغيفَ. وتسألُ: هل نَحْنُ في أورَ نرمم ما يتشظى على مدارِ الساعةِ أم نَحْنُ في صحنِ "ماكدونالد" يتناولنا سائحٌ وسائحةٌ بعد جولةٍ سريعةٍ في الجناحِ العراقي للآثارِ؟وكنا اعتقدنا بأننا نمضي إلى الوطنِ ظافرينَ.

وتقترحُ أنتَ الماضي بصيغة عشٍّ ينهارُ كلَّ يومٍ: التجربةُ هي اقتباسُ الألمِ. كانت بندقيتُكَ أصغرُ من النظريّةِ وقصيدتي تهبطُ السفحَ ببطءِ بغلٍ يائسٍ.

لم تعرفني ولم أعرفْكَ. نَحْنُ صديقا التوترِ المحضِ يطلُّ على وادٍ من الريوازِ (*) والألغامِ.

ثمّ كُردٌ يصيحونَ: لا تثقوا بالعربِ، وعربٌ يردّونَ: الجنرال الأشقر، طه الشكرچي، قبل النابالم لم يزل أشقرَ بعد النابالم. الجبلُ احتواءُ الروايةِ ونقيضِها. الدخانُ يتملّصُ من جثّةٍ ساخرةٍ تعودُ جثثاً إلى وادٍ يغرقُ تحتَ مطرٍ من فولاذٍ متوهجٍ.

لا شيءَ قبلَ اختراعِ الكلامِ ولا شيءَ بعد اختراعِ الكلامِ.

أترجمُ لامرأةٍ ما قالته فرجينيا وولف، بشأنِ الجيوبِ المليئةِ بالحجارةِ، لتعلّقَ: غرقَ طارقُ بن زيادَ في البحرِ من دون أن يضع في جيوبه حجراً واحداً.

نَحْنُ في كسلِ اللغةِ، يا سيدتي، فابحثي تجدي. المساء السعيدُ يُشبهُ شتراوس، نكتبُ أو نقرأُ لكننا لا نصرخُ ولا نهمسُ. الحياةُ هي نحن في لحظةِ السرير.

السريرُ اختصارُ الفقه والجبروتِ.

السريرُ بحثُ العريسِ عن غشاءِ البكارة.

السريرُ رائحةُ البيتِ يحملها الجنديُّ في حقيبتِهِ زوادةَ الطريقِ إلى الحربِ.

السريرُ، يا صاحبي، ساحةُ معركةٍ بين عدوينِ لا يعرفُ أحدهما لغة الثاني.

وما كنت لي إلا مسافةَ تفكيرٍ ولحظةَ تدبيرٍ.

قلتَ لي محذراً: "النظريةُ رماديّةٌ" فاستبدلتَ قميصي بالغسالةِ الكهربائية!

وأنا قلتُ: أن لا مكان لنا في لغة الجغرافيا لأننا من المكان كله واللامكان كله.

"شوارزكوف" يعرفُ مكان كلٍّ منا أفضلَ منك ومني. نحن الخاصرةُ الرخوة للبترول.

–هل تحبُّ؟

–مثل جميعِ البشرِ.

–هل تكرهُ؟

–مثل جميع البشرِ. إلا أن الحبّ مدينةٌ والكراهيّةَ زقاقٌ.
أنت تكتبُ عمودك الصحفي في الصفحةِ الأولى بينما يكتب رئيس التحرير تقريره إلى وزير الداخلية.
سأنتحي بكِ جانباً، يا امرأتي، بعيداً عن ساحةِ الاحتفالِ لأمشّطَ غيمةً حطّتْ بين حاجبيكِ وأنحدرُ قليلاً نحو جيدِ الغزالِ في لحظةٍ أصغر من شبقٍ وأكبر من لذةٍ، وعلى سفح بطنكِ أزرع الحندقوق وأتمادى في جعل سُرّتِكِ مركز العالمِ. وهناك في أقصى أعماقكِ الجنوبيّةِ ألفت انتباهكِ إلى ما غَمُضَ وما اتّضحَ في فهرس التضاريسِ وعند انتشاءِ الفكرةِ بجوهرها المبللِ يسيلُ الفتى وهو يرسمُ علامةَ التعجّبِ بين أعلاكِ وأسفلِك تحت ضوءِ الخشبِ المشتعلِ وجمراتِهِ السبعةِ.
في الحبِّ حيلةٌ دفاعيّةٌ عن الذات، يا صديقي. فرويد تفسير المخيلة في لحظةِ انتصار الألم الشخصيّ على سعادةِ السوقِ. "سوقُ الشيوخِ" مياهُ العراقُ الفقيرةِ وامرأةٌ زوجتني من نفسها ذات يوم وغيرتِ البوصلةَ ليصبحَ شرقُ القصيدةِ شمالَ دمشقَمن دون أن نتفاهمَ: هل كنتِ ابنتي المشاكسةَ أم أنا أخاكِ النزقَ. لا فرقَ بين اثنين يحترفانِ المجونَ.

هل عرفت، يا صاحبي، معنى انتقالِ الجزيرة في البحر إلى ساحلها؟ الكنايةُ تدريبُ اللغةِ على الفكرةِ وظلها في الذي يتبقى من الذاكرةِ. في الذي يتبقى من المستقبلِ.